
علماء العرب
١٨
ابن خلدون
أبو علم الاجتماع
تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب
الأهرام للترجمة والنشر

علماء العرب

ابن خلدون

أبو علم الاجتماع

سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس : ٩٢٠٠٢ يوان



أحبّوا بعضكم

غادرَ الصّبى « عبدُ الرحمن » مسجِدَ القُبّةِ الجامع في تُونسَ ، معَ أبيه « محمد » . واجْتازا معاً شوارِعَ المدينَةِ ، حتّى بلغَا شارِعَ « تُرْبَةِ البَاى » ، ودخَلاَ معاً بيتَ « آلِ خَلْدُون » .

كان بيتاً كالقصرِ . وكانَ فى انتظارِهما للغداء : أمُّ عبدِ الرحمن ، وإخوتُه : محمدٌ ، ويحيى ، وعُمَرٌ ، ومُوسَى . والتفُّوا معاً حولَ المائدَةِ .

والتفتَ الأبُ « محمدٌ » قائِلاً لبنِيهِ بسعَادَة :

ــ أخُوكُم عبدُ الرحمنِ لهُ صوْتٌ جمِيل . أنصَتَ لهُ الجمِيع ، وهو يقرَأُ آيَاتِ اللهِ فى مَسجِدِ القُبّة .

وابتسَمَ « عبدُ الرحمن » ولم يقُلْ شَيْئا . وعادَ الأبُ يقُولُ لبنِيه :

ــ لاينافِسُ جَمَالَ صوْتِ أَخِيكُم ، سِوَى جَمَالِ خطّه ، وقُوّةِ ذاكِرَتِه ، وحِفْظِه التَّامِّ لِكلِّ قِراءَاتِ القُرْآنِ السّبع .

كانَ « يحْيى » هُوَ أكثَرُ إخوةِ « عبدِ الرحمن » حُبًّا له . كانَ أصْغَرَ منه . وماكَانَ يحبُّه فيه هُوَ أَنّهُ لم يرَه غاضِباً قَطّ (أبدا) . ولم يره فرحا بنجاح ، أو حزينا لفشل . قالَ « يحَيَى » :

ــ سيكُونُ لأَخِى عبدِ الرحمنِ شأنٌ كبيرٌ فى يوْمٍ من الأَيّام .

وتأثّرَ الأبُ بما قالَه « يحْيَى » ، وقالَ لبنيه :

ـــ هذا هُوَ الحُبُّ يأبنائي . ما قالَه « يحْيَى » عن أخِيه هو حُبٌّ له . فتذكَّرُوا ذلِك . أحِبّوا بعضَكُمَ البَعْض . وكُونُوا يداً واحِدةً فى كُلِّ الظُّرُوف . وتذكَّرُوا دائِماً : أنَّ أحَداً لنْ يَأْخُذَ مِن الدُّنيا أكْثَرَ مما قَدّرَهُ الله لَه .

آل خلدون

كانتْ عائِلةُ « آلِ خَلْدُون » عائِلَةً نبيلةً وعرِيقةً ومَرْمُوقَةً فى « تُونس » . فى القَرْنِ الهجرىِّ الأوّلِ هاجَرَ جدُّها « خالِدٌ » من ديار « حَضْرَ مَوْت » (باليمن) ، وأقامَ مع عائلتِه فى « اشْبِيليّةَ » بالأنْدُلس . وتعظِيماً لشأْنِ « خالد » صُغِّر اسْمُه على الطريقةِ الأنْدَلُسيّة ، فقالُوا : « خَلْدُون » . ومع مُرُورِ السِّنينِ صارَتْ عائِلةُ « خَلْدُون » واحدةً من أقْوَى وأكبرِ ثَلاثِ عائِلاتٍ يمَنّيةِ الأصْلِ فى « اشبيلية » . واشْتَهَرَ من رِجَالِ « آلِ خَلْدُونَ » كِثيرون ، فى مجالاتِ الفِكْرِ ، والعِلمِ ، والسّياسةِ . وأظهرُوا بسَالةً (شجاعة) مُنقطِعَةَ النّظِيرِ فى معركةِ « الزَّلاّقةِ » الشهيرة ، ضِدَّ الفِرنْجَة ، على عهْدِ دولةِ « المرابطِين » .

لكن « آلَ خَلْدون » اضْطُرّوا ، فى النهايةِ ، إلى النزُوحِ عن « أشبيليّةَ » ، قبلَ قرنٍ واحدٍ من ميلادِ « عبدِ الرحمن ابنِ

خَلْدون » . فلم يعد من جَدْوَى (فائدة) لبقائهم فى « اشبيليّةَ » تحتَ حُكْمِ االفِرنْجةِ ، فسارَعُوا بالرّحِيل فى أواخِرِ عهْدِ دَوْلِةِ « الموحِّدين » وآثروُا الإقَامَةَ فى مدِينَةِ « تُونسَ » ، معَ جُموعٍ أخرَى من المهاجرِينَ الأَنْدَلَسُيِّين ، وبينَهُم ، ومعَهُم ، كان حِرَفِيُّونَ ، ومُزَارِعُون ، وأدباءٌ ، وعلماءٌ ، ورجالُ فِكرٍ ، وسَاسةٍ ، وقادَةٌ محارِبُون .

اخترت العلم

وفى « تُونُسَ » صَار « آل خَلْدُون » عائِلةً شهيرةً ، تَتَمتّعُ بشُهرةٍ رُوحِيةٍ كبِيرةٍ . حِينَ انصرَفَ والِدُ « عبدِ الرحمنِ » عن السِّيَاسَةِ ، وتفرّغَ للتّارِيخ ، ولِلّغة . وصَارَتْ له ، فى منزِلِه الكبِيرِ ، حَلْقَةٌ عِلْمِيةٌ وأَدَبِيّة ، يتردّدُ علَيْها الأدباءُ والعُلماءُ من أهلِ « تُونس » ، ويَفدُ إليها الأدباءُ والعلماءُ من الأندَلُس ، والمغرِبِ الكبيرِ بأسْرِه .

وفى هذِه الحلقة ، أتيحُ لعبدِ الرحمنِ وإخوتِه أن يتلقَّوْا تعليماً مُمتازاً ، على أيدِى أفضَلِ العلماءِ والأُدباءِ . حفِظ « عبدُ الرحمن » القرآنَ الكريمَ بقراءَاتِه السّبع ، وحفِظ أحاديثَ كتَابِ « المُوَطّأ » للإمَامِ « مالِك » ، والكثيرَ من أشْعارِ العرب ، وفى

مقدمتِها أشعارُ « المتنبِّى » . واكتسَبَ من علماءِ الأندلُسِ والمغرِب ، الوافِدِينَ على تونس ، معارفَ عُلُومِ الدّنيا فى زَمَانِه : المنطِقيّة ، والفلسفيّة ، والرياضِيّةِ والفَلَكية ، والطبيعيّة ، وأُغْرِمَ بِقَرَاءةِ كتابِ « الأَغَانِى » للأَصْفَهانِى . وحين سأَلَه أبوه عن سِرِّ حُبِّه لهذاَ الكتَابِ ، قال لأَبِيه :

ـــ لم أجدْ كِتَاباً أعرِفُ منهُ أحْوَال العَرَبِ ، مِثْلَ هذا الكتابِ .

وسأَلَ « عبدُ الرحمن » أباه ذاتَ يوم :

ـــ لِمَ لمْ تكُنْ ياأبِى ، مثلَ جدّك ، وزِيراً لبيْتِ المال ، عند سُلْطانِ تُونِس ، أو مِثْلَ جدِّى مستشاراً للسُّلْطان ، تَنُوب عنْهُ فى غِيَابِه ، وتحكُمَ مدينَةَ تُونس .

فضَحِك أبوه لسُؤُالِه ، وقالَ له :

ـــ ياعبدَ الرحمن . جدّى دَفَعَ حياتَه ثمناً لمَناصَرَةِ السّلطان . وجدُّك كانَ سيكُون مؤرخًا عظِيما ، لوْلاَ أنّهُ شُغِلَ عن التَّارِيخِ ، بكونِهِ مستشاراً للسلطان . وقد آثرتُ لنفسى ، ولَكَ ، ولإِخْوَتِك ، طريقَ العِلْم . وبفضْلِ هَذَا الاختيار ، صارَتْ لآلِ خَلْدُون منزِلَة عِلْمِيّةٌ ، دُونهَا كُلُّ سُلْطَان .

قائد أفريقي

كانَتْ مدِينة « تونُس » فى القرْنِ الثامنِ الهجرِىّ ، الرابعِ عشرَ الميلادِى ، مَوْقِعاً تُجارِيا ، يُراقِبُ عملياتِ العُبورِ البحريةِ والبرّية ، فى البحرِ المتوسط ، وبين المغرِب ، والمشرِق الإسْلاميّيْن . وفِيها كان يَتَجَمَّعُ حُجّاجُ المغرِبِ الكبِيرِ (تونس والجزائر والمغرب) ، والأنْدَلُسِ ، القادِمِين للحجّ ، والعائدِينَ من الحجّ .

وكانت « تونس » آنذاك عاصِمةً لدولـةِ تُـونس « الحَفْصِيّة » وتزْدَانُ بعَشَرَاتِ القُصُورِ الفخْمِةِ ، والمدارِسِ العدِيدَة ، والمسَاجِدِ الضخْمَةِ ، وفى مقدمتِها « مسجِدُ القُبّة »

وكانتّ « تُونس » ، أكثَرَ أقالِيم « تونس » خُصُوبة ، وأوفَرُها مِياهًا . وفى ضواحِيها ، على عهدِ « عبدِ الرحمن » ، كان يُزرعَ : الزيتُون ، والحبُوبُ ، والكرُوم ، والتّين ، واللّوْزُ ، والرُّمَّان . وبالقربِ منها كانتْ مدينةُ « قَرطاجَةُ » التى خرّبها الرّومان ، بعد هزيمتِهم للقائدِ المغربِى « هنِيبَال » الذى اجتاحَ فى زمان الرومان اسبانِيا ، وعبَرَ جِبال الألْب ، واحتَلَّ سُهُولَ ايطالِيا الشّمالِية ، ثم أعَادُوا بناءَها .

وكثيراً ماكانَ « عبدُ الرحمن » يذهَبُ إليها ، ويستعِيدُ مع نفسِهِ أمجادَ قائِدٍ افريقيّ تحدّى الرّومان ، أو يذهَبُ للتنزُّهِ فى مزارِعِ « تُونسَ » وحدائِقِها ، وضواحِيها .

عاشق المعرفة

كان « عبد الرحمن » قد بلغ مِنَ العمرِ سبعَةَ عشَرَ عاما ، حين استوْلَى السّلطانُ « أبُو الحسن » سلطانُ المغرِبِ الأقْصَى ، على « تونس » ، وانتزَعَها من أيدِى الحفصيّين ، وكانُوا لهُ أصهاراً وأصدقَاءً . وكان « أبو الحسَن » يحاوِل توْحِيدَ المغرِبِ الكبيرِ طَوال ثمانيةَ عشَرَ عاماً مَضَت . تَرَكَ عاصمةَ مُلكِهِ « فاس » ، وانْتَزَعَ جبَلَ طارِق من يد الفِرنجةِ ، ثم زحَفَ شرقاً ، واستوْلَى على سائِرِ المغربِ الأوْسَط (الجزائر الآن) من أيدِى « بنِي عبدِ الواد » ، ثم أكْمَلَ فتُوحَه باجتياحِه لافريقية ، أو المغرب الأدنى ، (تُونس) الآن . كان « أبُو الحسن » يحاوِلُ أن يُعِيدَ إلى المغربِ الكبِيرِ وَحْدَتَه الأولى التى كانَتْ له عَلَى عهدِ المرابطين ، فَالمُوَحِّدين .

وبقدرِ ماهزّت هذه الحربُ العاصِفَةُ رُوحَ « عبدِ

الرحمن » ، بقدرِ ما أبهَجَتْ عَقْلَه . فَمَعَ هَذَا السّلطانِ جاءَ عَشَرَاتٌ من عُلماءِ المغربِ والأندلُسِ ، الذين يشكّلُون مجلِسَه العِلْمِىّ ، أينَما نَزَلَ أو ارْتَحَلَ .

واتَّسَعَتْ حَلْقَةُ العِلْمِ فى بَيْتِ أبيهِ لهؤُلاَءِ العُلماءِ ، وفى مقدمَتِهِمْ اثنانِ ، صَارَا بيْن صَفْوَة (خِيرَةِ) أَسَاتِذَتِه : « ابنُ عبْدِ المُهَيْمِنِ » عالِمِ الدّينِ والأَدَبِ ، و « الآبِلّى » عالِمِ المنطِقِ والفلْسفَة . وأسْلَمَ « عبدُ الرحمنِ » ، عاشقُ المعرفةِ ، لهُما كُلّ عقلِه ، وجُلّ (معظم) وقتِه . يقْرَأ عليهِما ، ويسألُهُما ، ويحاوِرُهما ، ويجِيبُهما عما يَسْألاَنِهِ عنْه .

الوباء .. والمجاعة

وأقامَ « أبُو الحسن » فى « تونس » ثلاثَ سنوات ، يدير شئونها ، ويُعِيدُ ترتِيب نِظَامِها . وأثناءَ هذه الإقامَة حَدَث وباءُ « الطاعون » فى العامِ التّالِي ، عامِ تسعَةٍ وأربعينَ وسبعمائةٍ هجريّة ، ثمانيةٍ وأربعِينَ وثلاثمائةٍ وألفٍ ميلاديّة .

اجتاحَ هذا الوبَاءُ معظمُ أنحاءِ العالمِ شرْقاً وغرْباً ، من « سَمَرْقَنْدَ » إلى « المغرِبِ » ، وعَصَف بالأندلُس ، وايطالْيا ،



ومُعظمِ البلاَدِ الأورِّبَية ، وصار يهلك فى المدائنِ كلّ يومٍ ، وطَوَال عدّةِ أشهر ، العشراتُ ، والمِئاتُ ، والأُلوف . وهلَكَ فى هذا الوباءِ والدَا « عبدِ الرحمن » ، ومُعظَمُ العلماءِ الذين وَفَدُوا بصحبةِ السّلطان « أَبِي الحسن » .

وشَعَرَ « عبدُ الرحمنِ » بالوَحْشَةِ والوَحْدَة ، فقد خَلاَ عالَمُه مّنْ أحبّهم : الأبَوَانِ ، والعُلَمَاء . وتوقفتْ رحلتُه مع العِلم . وانطوى « عبدُ الرحمن » على نفسِه عاماً ، جاءَ بعدهَ عامٌ آخرُ مِلىءٌ بالأَحْزَان . فَهَاهِىَ المجَاعَةُ بعدَ الوباء تَجْتَاحُ المغرَبَ الكبيرَ ، وهاهُم من بقوْا أحيَاءَ من العُلَماءِ ، وبَيْنَهُمْ أستاذُه « الآبِلّى » ، يرحلُون مع خُرُوجِ السّلطانِ « أَبِي الحسَنِ » من « تُونسَ » .

وفكرَ « عبدُ الرحمن » أن مجرَى حياتَه يتغيّر . وقالَ لأخِيهِ الكبيرِ « محمد » :

ــ أفكّرُ فى الرحِيلِ ، واللّحاقِ بالعُلماءِ . فلا أُحِبّ أن تَتَوَقّفَ دراستِي للعِلْم .

فقال له أخوه « محمد » :

ــ لاتتعجّلْ ياعَبْدَ الرحمن . وانتظِرْ إلى أن تَهْدَأَ الأُمُور ، فالمغرِبُ كُلُّه شَدِيدُ الاضطراباتِ .

كاتب العلامة

بعد رحِيلِ « أبِي الحسَنِ » عن « تُونسَ » ، زحَفَ الأمِيرُ « الفضْلُ » الحفْصِيّ عليها بجْيشِه ، واستردّ مُلكَ أُسرتِه . وجعل « ابْنَ تافْرَاكِينَ » وزِيراً له . لكنّ هذاَ الوزيرَ خَانَهُ ، ودبّرَ انقلاباً ضِدّه ، وعَزَلَه ، وَوَلّى مكانَه أَخَاهُ الصغيرَ ، لِيظَلّ ، هُوَ الوزيرُ ، صاحِبَ القرارِ والسُّلطَةِ ، باسْمِ السّلطانِ الصّغِيرِ .

وجاءَ يوماً إلى « عبدِ الرحمن » أخُوه « محمدٌ » ، وقالَ له :

ـــ ابنُ تافراكِينَ طلبَك ، دُونَ سِوَاك ، لتكُونَ كاتِبَ العَلاَمةِ (المقدمات البليغة لرسائل الدولة) فى قَصْرِ السّلطانِ . ورأْيِى أن تَقْبَلَ هذِهِ الوظيفة ، حتى لايُصيبَ أَحَدٌ من آلِ خَلْدُون الأَذَى ، فهو وزِيرٌ مُسْتَبِدّ ، وأحوالُنا المالِيّةُ ليْسَتْ على مايُرام .

وقَبِلَ « عبدُ الرحمن » هذِه الوظيفةِ كارِهاً ، فهو لم ينَلْ مانالَه مِنَ العِلْم ، لِكَىْ يكتُبَ ، بخطٍّ أنِيقٍ ، مقدماتٍ بليغَةً ، لرسائِلِ قصرِ السّلطانِ . وكان قد بلغَ من العمر عشرِين سنَة .

ومرَّ عام ، وشُهُور . وزحَفَ ابْنُ « الفَضْلِ » ، السلطان

المعزول ، عَلَى « تُونُسَ » ، لِيستَرِدّ عرْشَ أبيه ، وكان أميراً على « قُسنطينَةَ » (بالجزائر) . وخرجَ « ابْنُ تَافْرَاكِين » لِلقائهِ ، مصطحباً معَهُ « عبدَ الرحمن » . وهُزِمَ « ابَن تافراكين » . فَفَرّ « عبدُ الرحمنِ » ليْلا ، من المعسْكَرِ المهزُوم ، واتَّجَهَ غرباً فى بلادِ « هَوّارَة » ، واجتازَ بِلادَ « أُبَّة » ، و« تَبَسّة » . وفِي « قَفْصة » رافَقَ صدِيقاً قديماً له إلى مدينَةِ « بَسْكَرَة » (بالجزائر) .

وكان فى جيبِه بعضُ المال ، فاستقَرّ إلى أن يْنقَضِيَ الشّتَاءُ . وراقَتْ له فَتَاةُ من عائِلاتِ « بَسْكَرَة » ، فاختارَها زوجَةً له ، وعمرُه ثلاثٌ وعشرُون سنة .

وكان السلطانُ « أبو الحسن » المرْيَنِيّ قد تُوُفِّى ، وانفرطَتِ من بعدِه فُتُوحَاتُه خارِجَ المغرِبِ ، وَوَلِى عرْشَ « فاسٍ » من بعدِه ابنُه « أبُوعِنَان » ، وكان شُجَاعاً طَمُوحا ، وأرادَ أن يستردّ المدائِنَ التى تحرّرَتْ من التبعيةِ لفاس ، فتقدّمَ بجيشِه ، واستولَى على « تِلمسَانَ » . وخشيِ الأميرُ « أبوُ عبد الله » الحفصِيّ العِاقبة ، فسلَّم له طائِعا إمارَةَ « بِجّايَة » .

وجاءت الأخبارُ إلى « عبدِ الرحمن » بأن صديقه « محمدُ ابن أَبِى عُمرَ » هو حاجِبُ (رئيس وزراء) « أبِي عِنَان » ، فقالَ لزوجتهِ الشابّة :

ـــ سأَلْحَقُ بسلطانِ المغرِب فى « تِلمسان » ، وستبقِين هنا بين أهلِك فى « بسْكرة » إلى أن أعودَ إليك ، أو أُرسِلَ من يأتِي بِك إلَىّ .

وبكتِ زوجتُه الشابة ، فهذا هو أوّلُ فراق .

إجازات علمية

قدَّمَ الحاجِبُ صاحِبَه الفتى « عَبْدَ الرحمن » إلى السّلطانِ « أبِى عنان ، قائلاً له فى مجلِسِ العُلماء الذى يُحِيطُ بِهِ نفْسَه :

ـــ هاهُوَ يامولاَى عالِمٌ شابٌ نابِه ، من آل خَلْدون ، واسمُه : عبد الرحمن بن محمد .

فقال لهُ السّلطان :

ـــ مرحباً بك معناً ياعبْدَ الرحمن . لا نَنْسَى مَكْرُمَةَ أبِيك مع العالِمِ « عبدِ المهيمن » ، حين آوَاه عندَه ثلاثَةَ شُهور ، وأخْفَاه ، عندما ثارَتِ الفتنَةُ فى تُونسَ ، ضدّ والدِنا « أبِي الحسن » .

ودعَاه السلطانُ للجلُوس ، مع العلماءِ ، والمشارَكةِ فى

حدِيثهم ، وأعجبتْه فطنَتُه ، فجعَله فى صُحْبةِ حاجِبه ، إلى أن يَعُودَ إلى « فَاس » .

وفى « فاس » ، ضَمّ « أَبُوعنان » عبدَ الرحمنِ إلى المجْلسِ العِلمِىّ ، فصارَ يشهد مَعَهُ الصّلَوَاتِ ، ويَشترِك فى المناقَشَاتِ (المحَاوَرَاتِ) . وعيّنه كاتِباً للعَلامة فقِبلَ وظيفَته كارِهاً . وسَارعَ بدعوةِ زوجَتهِ إليْه ، فجاءَت تحمِلْ على صدرِها ابنَهُ الأوّل : « زَيْد » .

وعادَ « عبدُ الرحمن » يستأنِفُ ، فى « فاسَ » ، ما انقطعَ من حياتِه . يلقَى بها علماءَ المغرِبِ والأندَلُس ، ويبحثُ عن حَلْقَاتِهم فى كُلِّ مَكان . وبينهَم كان « ابْنُ الصفَّار » إمامُ القِرَاءات ، و« المقَّرِى » القاضِى ، و « العَلَوى » المتفلسِف ، و« البُرْجِىّ » الكاتبِ . ونالَ مِنهم جميعاً الإجازَاتِ العِلْمِيّةَ .

وكانت « فاس » ، آنذَاك ، مدينَة مزدَهِرَة ، بأهْلِ الحِرَف ، والتّجارِ ، عامِرَةً بالمنازِلِ الكبيرَةِ ، والقُصُور المشيدَة بالحجر والرّخَامِ ، والمزيّنَةِ بالخَزَفِ والزخَارِفِ ، وقد انتشَرَ فيها التّرفُ ، وأنِسَ أهْلُها إلى الراحَةِ والرّخَاء ، والثّيابِ الحريريةِ ، والخيولِ البدِيعة ، والحُلِىّ الذهَبِيّةِ والفِضِّيّةِ .

وإلى جانِبِ « فاس » القديمةِ هذه ، كانتْ حركَةُ البناء

لا تتوقّفُ يوماً ، لإنشاءِ « فاسَ » أُخَرى جديدةٍ ، يعيشُ فيها الموظفُونَ الكِبارُ ، والعسكرِيّون العِظام ، ورجالُ المالِ ، وتجارُ الذّهب .

زيارة تقود للسجن

وذهبَ « عبْدُ الرحمن » ذاتَ ليلة ، كعادتِه ، لزيارَةِ صديقهِ القديمِ ، الأميرِ الحفْصِيّ ، سليلِ الأسْرةِ الحفصيةِ بتونس ، الأميرِ « أَبُو عبدِ الله » الذى تنازَل طائعاً للسّلطان « أبِى عنان » عن عرْشِ « بجاية » ، وصارَ محدّدَ الإقامَةِ فى بيتٍ كالقفص الذهبِىّ فى مدينةِ « فاس » . وكان « عبدُ الرحمن » يتعهّدُه بالرعاية والخدمَة ، من موقعِ نفوذِه فى قصْر السّلطان .

وقال الأميرُ « أبو عبد الله » لعبْدِ الرحَمن :

ــ إنّى لأشْعُر بعمِيقِ الامتنان (الشكر) لكَ . ولا أدرِى كيف أرُدُّ لكَ معروفَك معِى ، سِوَى وعْدِى لكَ ، بأن تكُونَ حاجِباً (رئيس وزراء) لِي ، إن عدتُ إلى عرْشِ « بجايَة » .

وفُوجِىء « عبدُ الرحمن » بالأميرِ يُقَدم له وَرَقَةً مكتوبَة ، بها هذاَ الوعْدُ الذى قطعه على نفسهِ . ومسَّ هذا الوعْدُ وتَرًا

فى قلبِ « عبدِ الرحمن » ، فقد كانَ كارِهاً لوظيفتِه ، ككاتبٍ للعلاَمة ، فى قَصْرِ السّلطان « أبِي عنان » .

وسَعَى الوُشَاةُ لَدَى السّلطانِ بهذِه العلاقَةِ الحمِيمَةِ ، بينْ الأميرِ الأسِير ، و « عبدِ الرحمن » ، فأَمَرَ بالقبْضِ على الاثْنَيْنِ ، وعذّبَهُما ، وأَلْقَى بهِما فى السِّجْن ، وكانَ « عبْدُ الرحمن » قد بلَغَ من العمر تسعاً وعشرِين سنَة .

وأطلقَ السّلطانُ سَرَاحَ الأمِيرِ « أبو عبدِ الله » بعدَ حين ، لكنه أبْقَى « عبدَ الرحمن » سجِينا ، لا تشْفَع لديْه أشعارُه المتوسِّلَة ، ولاتُفلِحُ عندَهُ وَسَاطَةُ الشُّفَعَاءِ (الوُسَطاء) ، حتى رَقّ له قلْبُ السلطانِ ، إثْرَ قصيدةٍ بعَث بها إليه « عبدُ الرحمن » بلغتْ عدةُ أبياتِها مائتَى بيْتٍ . ووعَدَ السّلطانُ بالإفراجِ عنه ، لكن السُّلطانَ كانَ مريضا ، منذُ سبعِ سنوَات ، وأسلَمَ الروّحَ ، قبلَ أن يفِىَ بوعْدِه .

حريــة بـلا عمــل

وآلت (صارت) السّلْطَنَةُ فى « فاسَ » ، إلى ابنهِ الطفْلِ الصغيرِ الأميرِ « السّعيد » وكانَ الوزيرُ « الحسَنُ بنُ عمر » هو الوصِىّ عليْه ، والمستبدّ بشئُون الدوْلةِ ، وقَتَلَ هَذَا الوزِيرُ مُنَافِسيهِ



من الوُزَرَاء ، وأطْلَق سَرَاح « عبدِ الرحمن » ، مع سِوَاه من المعتقلين ، ليتخذَهم أعْوَاناً له . لكن « عَبْدَ الرحمنِ » خشِيَ عواقِبَ السياسَةِ مَعَه ، فقالَ لَهُ :

ـــ إن أذِن لى سيدِى الوزير ، انصرفتُ عنْ « فاس » عائداً بأهْلِى إلى تُونس .

فقالَ لهُ الوزِير :

ـــ بل ستبْقى معناَ ياعبْدَ الرحمن ، ونعامِلُكَ بالكرامَةِ والإحْسَان ، ونُمِدُّكَ بما تَحْتَاجُه من المَالِ .

ولم يُعِد « عبد الرحمن » إلى وظيفَتِه ، فكَتَم ضِيقَه ، وانصرفَ زَمَنا إلى طَلَبِ العِلْم ، حتى ثارَ « منصُورُ ابن سليمان » على هَذَا الوزير ، وقَتَله ، وانْتَزَعَ لِنَفْسِه سَلْطَنَة المغرِب ، وأعَادَ « عبدَ الرحمن » إلى وظيفتِهِ ككاتِبٍ للعلامة !!

العودة إلى الينابيع

وكان للسّلطان « ابن عِنان » أخٌ مُقِيمٌ بالأندلس ، هو « أبو سالمٍ » . وقَدِم هذا الأَخُ إلى المغْرِب ، لِيَسْتَرِدَّ بالحَرْبِ مُلْكَ آبَائِه ، يُسَانِدُه فى ذلِكَ وزيرُه « ابنُ مَرْزُوقٍ » ودعَا هذا الوزِيرُ إليه « عبدَ الرحمن » وقالَ له :

ـــ لَكَ فى نُفُوسِ أَعْيانِ المغرِبِ منزلةٌ ياعبْدَ الرحْمن . والسلطانُ يُكَلِّفُكَ بدعْوَةِ هَؤُلاَءِ الأعيانِ لمناصرَتهِ ، لكى يَدْخُلَ مدينة « فاس » فاتِحاً لها ، ويَعِدُك بأكبرِ الثّواب ، وأعظَمِ المنزلَةِ ، إذا نَجَحْتَ فى مُهِمّتِكَ .

وصحِبَ « عبدُ الرحمن » معَه رِجَالاً من صَفْوة (خيرةِ)

أصْحَابِ « أبى سالم » ، مُقْنِعاً نَفْسهُ بأنّ أحْوَالَ المغرِبِ قد اختَلّتْ ، وأنّها ستِصيرُ لا مَحَالَةَ (لا مفرّ) إلى « أَبِى سَالِم » .

ونَجَحَ « عبدُ الرحمن » فى مهمتهِ ، وجلسَ « أَبُو سَالم » سلطانًا على عَرْشِ « فاس » ، فدَعَا إليه « عبْدَ الرحمن » ، وقال لَه :

ــ من الآنِ ، أنْتَ أَهْلٌ لثقتِي ، وستَكُونَ فى السَّلْطَنَةِ ، فى مَنْصِبِ « كاتِبِ السِّر » .

ونهَض « عبدُ الرحمن » سعِيداً بكتابَةِ رسائِلِ السلطان ، من مبدئِها إلى منتَهاها ، فأحْدَثَ ثورةً فى زمَانِه ، فى فَنِّ كتابَةِ الرّسَائل ، فقد عادَ بها إلى أسْلُوبِ الكتابةِ المُرْسَل ، الذى كان لَها على يدِ الكُتّاب العرب العِظَام .

حسد ابن مرزوق

وظل « عَبْدُ الرحمن » فى هَذَا المنصِبِ قُرَابَةَ عَامَيْنِ ، حتى خَشِيَ الوزِيرُ « ابنُ مرزُوق » على مكانَتِه مِنه ، وخافَ أن يزدَادَ ترقِّيهِ عند السّلْطَان ، فَيُصْبِحَ لهُ وزِيرا ، وعندَهُ أَثِيراً (مُفضّلا) . ووقَع ماخشِيه « ابْنُ مرزوق » ، حين قالَ « أَبُوسَالِم » لعبدِ الرحَمن :

ـــ بلغَنَا ياعبْدَ الرحْمَنِ مَدَى ماأنْتَ عليْهِ من العِلْمِ بالشرِيعَة والفِقْه . ونعرِفُ حِرصَكَ على الصدْقِ والعَدْل . ولذلِكَ ستَلِى ، إلى جانِبِ عَمَلِك ، ديوان المظَالِمِ (العدل) . فانْهَض بها عنّا ، كقَاضٍ .

وكانَ الوزِير « ابْنُ مرْزُوقٍ » حاضِراً ، وكانَ أيضا فَقِيها ، فحسَدَ « عبْدَ الرحمنِ » لفوْزِه دُونه ، بوَزَارَة « دِيوَان المظَالمِ » الذِى لم يُسنِدْه سُلطَانٌ لأحَدٍ سِوَاه . فى تِلْكَ اللحظَةِ ، عَزَمَ « ابْنُ مَرْزُوق » على تَدْبيرِ الخلاَصِ من « عَبْدِ الرحمنِ » بالوِشَايَاتِ ، والدّسَائِسِ .

وحقّق « ابن مَرْزُوقٍ » غَرَضه بعْدَ حين ، فأبْعَدَ السّلطانُ « عبدَ الرحمنِ » عن مجلِسه ، وقرَّب « ابنَ مرزُوقٍ » إليْه ، ولم يُنقِذْ « عبدَ الرحمن » من شَرِّ « أبى سالم » سِوَى تمرُّدِ أعْيَانِ « فاسَ » علَيْه ، بزعامَةِ الوزير « عُمَر بنِ عَبْدِ الله » ، وكانَ زوْجا لأُخْتِ « أبِى سالم » ، وكبيراً لأُمَنَائِه . وانْتَهى هذا التمرّدُ بخلْعِ « أَبِى سالم » من السّلطَنَةِ ، وتولِيةِ أخِيه « تاشَفِين » سُلْطاناً على عرْشِ « فاس » . وكانَ « عبدُ الرحمن » قد بلَغَ من العمرِ إحدَى وثلاثِين سَنَة .

الخروج من فاس

وكان الوزِير « عمر » صديقاً لعبْدِ الرحمن ، فبادَرَ (سارَع) « عبدُ الرحمن » بإعلاَنِ وَلاَئِهِ له ، فأقَرَّه هذا الوزيرُ على كتابَةِ السرّ ، ودِيوانِ المظَالم ، بلْ وزَادَ فى راتِبه ، ومنَحَه أملاَكاً من الأرَاضِى والدّور . ووثِقَ « تاشفِين » بعبد الرحمن ، وخشِيَ الوزِيرُ « عمرُ » بدوْرِه ، من « عبدِ الرحمن » ، فقد يُصبِحُ حاجِباً للسّلطان ، ويشْغَلُ مكانَه ، على صِغَرِ سِنِّه ، فراحَ يعْرِضُ عنْه ، ويتنكّرُ لهُ ، وينتقِدُه فى عملِه أَمَامَ السُّلطان .

وشَعَر « عبد الرحمن » بقُرْب وقوعِ الشَّر ، فرغِبَ فى الرحِيلِ عنْ « فَاس » ، خوفاً من خَطَرِ السجن ، أو القَتْل . فَوَسَّط الوزِيرَ « مَسعودَ بنَ مَاسَاى » لَدَى الوزِيرِ « عُمَرَ » لكى يُقْنِعَه بالإذْنِ لهُ فى الرّحِيلِ عن « فَاس » . ورحّبَ الوزيرُ « عُمر » برحِيله ، لكنّه قالَ له :

ـــ أذِنّا لكَ فى السَّفرِ ياعبدَ الرحمن ، إلى أىِّ مكانٍ . عداَ مكانَيْنِ : تِلِمْسَان ، وتُونس .

وفهِم « عبدُ الرحمن » غَرَض الوزِيرِ من إبعادِه عن هاتَيْنِ المدينتَيْنِ ، ففى « تِلمسَانَ » (بالجزائر) السُّلطانُ « أبو حَمُّو »

عدوُّ سُلطانِ المغرِبِ ، وفى « تُونسَ » سلطانُ حَفْصِىّ ، يعادِى هو الآخر سُلطانَ المغرِب ، وفى وجُودِ رجلٍ مثلِ « عبدِ الرحمنِ » ، عندَ أحدِهما ، خطرٌ مؤكّدٌ على سُلطانِ المغرِب ووزيرِه . وقال « عبدُ الرحمن » طائِعاً ، وواعِداً :

ـــ إن أَذِنَ لِى الوزِيرُ سَافرْتُ إلى « غَرْنَاطَةَ » بالأندلُس ، بعيداً عنِ المغرِبِ كله .

وقَبِل الوزيرُ « عُمرُ » ماطلَبهُ « عبدُ الرحمن » ، وزَوَّدَه الوزيرُ « مسعودٌ » بالمالِ . وأرسَلَ « عبدُ الرحمن » زوجَتَه وأوْلادَه إلى أخوَالِهم فى « قُسَنْطِينَة » ، إلى أَنْ يستقِرّ بِهِ الحَالُ فى « غَرْنَاطَة » .

فى قاعة الأسود

عَبَرَ « عبدُ الرحمن » مضِيقَ جبلِ طارق إلى الأندلُسِ ، وركِبَ فرسَه فى طريقِهِ إلى « غَرْنَاطَةَ » . وفوجِىءَ بالأمِيرِ « محمدِ الخامِس » ووزيرِه « ابنِ الخطِيبِ » يستقبلانِه خارِجَ « غَرْنَاطة » مع كبارِ الفُرْسَانِ . وكانَ « عبدُ الرحمن » ، قَدْ عَاوَنه فى إقْنَاعِ السّلطَانِ « أَبِى سالم » ، عِندَما كانَ لاجئاً فى



« فاسَ » ، فَسَاعَدَهُ بجَيْشٍ لِكَيْ يسترجِعَ عرشَه فى « غَرْنَاطَةَ » ، مِمنّ تَمرَدّوا عليْهِ ، وخلَعُوا طاعَتَه .

وعاشَ « عبدُ الرحمن » قُرَابَةَ عامٍ مُعزّزاً مُكرّماً . يُشارِكُ الأميرَ ووزِيرَه فى مجالسهما ، ورحلاتِ صيْدِهِماَ ، ويخلُو إلى نفسِه أوقاتاً فى مَكْتَبَةِ « غَرْنَاطَةَ » العامِرةَ ، أو فى التّنَزُّهِ بيْنَ البَساتِينِ ومياهِ النوافير ، أو فِي الإِنْصَاتِ إلى أَغَانِى الْغَرْنَاطِيِّينَ وأشعَارِهم .

وطابَتْ له الحياَة فى « غَرْنَاطَةَ » ، فكتَب رِسَالَةً فى المنطِقِ ، وشرْحاً موجَزاً لمِؤَلّفاتِ « ابنِ رُشْد » . ثم دعَاه الأمِيرُ إليْه ، وكانَ جالساً فى « قاعَةِ الأسُودِ » بين قَاعَات قَصْرِ الحمراء البَدِيعَة ، وقالَ له :

— إنّنِي بحاجَةٍ إلى مَعُونَتِكَ وخِبرْتِكَ ياعبْدَ الرّحمنِ . سأعهدُ إليْكَ بمهمةٍ دقِيقَةٍ فى « اشبيليةَ » ، لدَى ملِكِهاَ « بُطرس الرهِيب » ، لتعقد بَيْننا مُعاهَدَة سَلاَمٍ .

مع بطرس الرهيب

دخَلَ « عبدُ الرحمن » مدينةَ « اشبِيليّةَ » . وعجِبَ لأنّه لم يشعُرْ فيها بالغُرْبَة . وكانَ الحراسُ يصحَبُونَه إلى قصْرِ

« جيرَالد » . ولاحَظَ فى الطريقِ روْعَةَ الأبنيةِ التى تشهَدُ على عظَمةِ أجدَادِه العرَبِ ، وأنّ كثيراً من المسلِمينَ لايزالُونَ يعيشُون معَ الفرنجة فى « اشبيلِيّةَ » ، ولكنْ ، كموالِى (أتباع) لهُمْ . وشعَر بالمرارَةِ لِهجرةِ أجدادِه هذِهِ المدينَةَ السّاحِرَةَ ، وبالحُزن لحالِ المسلِمينَ الذِى صارُوا إليْهِ ، على شاطِىء نهرِ الوادِى الكبِير ، يشتغِلُون ، مايزَالُون ، بالثّقافَةِ ، وصُنْعِ العُطورِ ، والمنسوجَاتِ ، والآلاتِ الموسيقية ، وسائرِ الحرفِ الأخرى .

وحيّا « عبدُ الرحمن » ملكَ « اشبيليّةَ » . وجَدَهُ كبيراً فى السِّنِّ ، ومتعَباً ، وقدّم لهُ هدَايَا مَلِكِ « غَرْنَاطةَ » : خيولٌ عربيّةٌ أصِيلةٌ ، مطعّمةُ السُّرجِ واللّجُمِ . وأخذَ الطبِيبُ اليهودِىّ : « ابراهِيمُ ابنُ زَرْزَرْ » يُتَرجِمُ بينَهُماَ ، وكان « عبدُ الرحمنِ » يعرِفُه عِندَما كانَ بِفَاسَ .

ورحّب الملك بالفُرْصَةِ المتاحَة للسّلام . وكان بحاجَةٍ إليه أكثَرَ من أىِّ وقْتٍ ، كىْ يفْرَغَ لمواجَهةِ أمراءِ إماراتِ مملكَة « قَشْتَالة » ، الذينَ تحالَفُوا ضِده ، وهُمْ أعْوَانُه ، مع فَرَنْسَا ، وإمارةِ « الأَرَجُون » . واتّفقَ الرجُلاَنِ على معاهَدَةِ السّلام ونُصُوصِهَا .

ودعَا الملِكُ بطرسُ « عبدَ الرحمن » ليبْقَى معَهُ فى

« اشبيليّة » ، زاعِماً أنّ بقاءَه معَهُ سيُسَهِّل الكثيرَ من أُمُورِ العربِ عنده ، وفى الأندلُس . وقالَ له :

ـــ إذا قبِلْتَ عرضِي . سأُعِيدُ إليكَ كلَّ الأَراضِي والعقارَاتِ التى كانَ يملكُهاَ آلُ خَلْدُون فى « اشبيليَّة » .

لكِنّ « عبدَ الرحمن » اعتذَرَ عن قبُولِ العرْضِ . فأهْلُ « غَرْناطَة » بحاجَةٍ إليْه . وكان يحتقِرُ فى أعماقِه هؤُلاءِ الخونَة الذينَ يعملُونَ عنْدَ الفِرنْجةِ . وقبِلَ الملكُ عُذْرَه ، وأهدَاهُ بغلةً لجامُها من الذّهب ، وسَرْجُها مُطعّمٌ بالذهَب ، ومِهْمازُهَا من الذّهَبِ ، وحَمَّلهُ الهداياَ إلى مَلِك « غَرْناطَةَ » .

رسالة عبْر البحر

فرِحَ ملِكُ « غَرْنَاطَةَ » بنجاحِ مُهمّةِ سفيرِهِ « عبدِ الرحمنِ » وارتفعَ قدرُهُ عندهَ لِرَفْضِهِ العمَلَ مع مَلِك « اشبيليّة » ، ولأنّه أهْدَى إليه هَدِيّته الخَاصَّة بِهِ ، التى أَهْدَاهَا له « بطرُسُ الرهيبِ » وكافَأَه فَمَنَحَهُ خَرَاجَ (ضرائب) قرْية « البيرة » (الفِيرا) ، ومايُحِيطُ بها من الأَراضِي المروِيّة ، وكانَتْ فى أخْصَبِ مناطِقِ « غَرْناطَة » . وأرسَل سفينة لِكَىْ

تعودُ إليه بزوْجتهِ وأوْلادِه من مدِينةِ « قُسَنْطِينَةَ » ، فعاشَ معهم فترةً سعِيدَةً ، قصيرَةً ، من حياتِه العَاصِفَةِ . وكانتْ « غَرْنَاطَة » تلعَبُ ، آنَذَاك ، وهِىَ التابِعَةُ ، دوْرَ الوِصَايةِ ، على مدينَتىْ : مرّاكش ، وفَاس ، الغَارقتين فى التَّرف ، والصِّرَاعَاتِ .

لكن « عبدَ الرحمن » ، بعد عامين فقَطْ ، سئِمَ هذِ الحياةَ المُريحَةَ ، وشعَر معَها بسَأَمٍ خَفِىٍّ ، أخذ يكبر فى نفسِه وعقلِه . وغذَّت مشاعِره تِلكَ مَخَاوفُه من شُكُوكِ صديقِهِ الوزيرِ « ابنِ الخطيبِ » بهِ ، لطولِ بقائِه فى « غَرْنَاطَةَ » . ولقُرْبِه الشّدِيدِ من أميرِها .

وحسَمَ « عبدُ الرحمنِ » أمرَه ذاتَ ليْلَةٍ ، حين جاءَته الفُرْصَة ، فقابَلَ الأميرَ « محمداً الخامِسَ » فى قَاعَةِ الأسُود ، وأطلَعَه على رِسَالةٍ وصَلَت إليْه عبرْ البحر ، قائِلاً :

ـــ إنَّنِي أشكرُك أيّها الأميرُ لحُسْنِ ضِيَافَتِك ، وإكرَامِكَ لِي ولأَهْلِي . وقَدْ آنَ للطّائِرِ المهاجِرِ أنْ يعُودَ إلى وطَنِه .

كانتِ الرسَالةُ من صديقِهِ القديمِ الأميرِ « أبو عبدِ الله » ، أميرِ « بجّايَة » ، وكانَ قدْ نجحَ فى العودةِ إلى إمارتِه . وكان يدعُوه إليه ، لكى يتسَلّمَ منصِبَ الحاجِبِ (رئيس الوزراء) فى « بجّايَة » . وأذِن له مَلِك « غَرْنَاطَةَ » ، آسِفاً ، وأكْرَمَهُ بالهدايا

والعطاَياَ . وأخْفَى « ابنُ الخطيبِ » فرحَه برحِيلِه ، وتظاهَرَ بالحُزْنِ لِفرَاقِه . وكانَ « عبدِ الرحمن » قد بلغَ من العمرِ ثلاثاً وثلاثينَ سنة .

مطامع ابن العمّ

كان يومُ استقبالِ « عبدِ الرحمن » فى « بجَّايةَ » يوماً مشهوداً ، خارجَ المدينةِ ، وكانَ هُو على فرَسِه ، بجانِبِ الأميرِ . وقالَ الأمير « أبو عبد الله » للجمِيعِ :

ـــ اشْهَدُوا . مِنَ اليوْمِ ، صارَ « عبد الرحمن ابن خلدون » حاجِبى ، وصاحِبَ الأمْرِ والنهْى فى بجّاية .

وعكَفَ « عبدُ الرحمن » على تدبِيرِ أمُورِ المدينة . يَجْبِى (يجمع) لها الضرائِبَ بَدهَاءٍ وحزْم ، ويُخمِدُ مافِيهاَ من فِتَنٍ ، ويخطُب خطْبَةَ الجمعةِ فى جامِعِ القَصَبَة ، ويدرِّسُ العِلمَ لطلابِها وعُلمائِها ، ويستقبِلُ حِيناً الأميرَ « أَباحَمّو » أَمِير تِلمْسَان » وصهْرَ أَمِيرِ « بجَّايَةَ » .

لكن الأَمِيرَ « أَبَا العبّاس » ، أَمِيرَ « قسنطينة » ، وابنَ عمِّ أميرِ « بجَّايَةَ » ، طمِعَ فى حُكْمِ « بجَّاية » ، ورَاح يُجَنِّد القبائِلَ



ضدّ ابنَ عمهِ . وكانَتْ « بجَّايَةُ » مدِينةً غنيةً ونشِيطَةً ، مُحَاطةً بسهْلٍ خصْبٍ ، مزرُوعٍ بِعنايَةٍ ، ومَنيعةَ الحصُونِ ، وتصِلُ إليْها المواردُ من القبائِل ، وتجارِ الذهبِ والبضَائِع ، وحلْقَةَ وصْلٍ بيْنَ افريقيا وأُورُبا ، وبينَ تُونَس وتِلمسان . وكان أهلُها خلِيطاً من المسْلِمينَ والمسيحيِّينَ ، والمغاربَة والمشارقَةِ والأندلسيِّينَ ، والبدْو والحضرِ ، والقبائلِ الشتَّى ، ويُعارِضَون بَعْضَهم الُبعضَ فى كُلِّ شَىْءٍ . ولذلك قالَ « عبدُ الرحمنِ » لابْنِهِ « زيْدٍ » :

ـــ الحَرْبُ واقعةٌ لا مَحَالة بينَ ابنَي العَمّ . فهذهِ المدينةُ مثيرَة بِغناها ، وتفرّق أهْلِها ، لمطامِعِ كلّ الأمراءِ من حَوْلِها .

ونجحَ « أَبُو العبّاسِ » فى حرْبه ضدّ ابنَ عمه ، حينَ شَنّ هُجُوما مفاجِئاً على جَيْشِه ، ولقِيَ الأميرُ « أَبُو عبدِ الله » مَصْرَعه ، وهو يَلُوذ بالفِرَار .

ولم يجدْ « عبدُ الرحمن » مَفَرّا ، لحمايَةِ المدينةِ من تسلِيمها للأميرِ « أَبِي العَبّاس » ، فأبْقَاه فى مَنْصِبه ، وظلّ « عبدُ الرحمن » خائِفاً منْهُ على نفسِهِ وأهلِهِ ، ولذلِكَ سارع « عبد الرحمنِ » بالفِرارِ بأهْلِه ليلاً ، إلى مدينَةِ « بَسْكرةَ » ، فأمَرَ « أبو العبّاسِ » بتفتِيشِ بُيوتِ « آلِ خلدون » فى « بجَّايَةَ » ، فلمْ يجدْ رجالُه بِها ذِخيرَةً ولا أموالاً . وغضِبَ فأمَرَ باعتقالِ أخِيه « يحيَى » ، وكانَ مقيما فى بلدَةِ « بُونَةَ » (العِنّاب) بالقربِ من « بجّاية » .

هزيمة ساحقة

كانَ « عبدُ الرحمن » قد بلغَ من العمرِ ثمانيِ وثلاثِينَ سَنةً . وكان حزِيناً على مصرَعِ صاحِبه ، حينَ جاءَه سفِيرٌ من « أبِي حَمُّو » ، أميرِ « تلمْسَان » ، وقالَ له :

ــــ الأميرُ « أبو حَمُو » ، يُرِيدُ معاونَتَك فى الثأْرِ لصهْرِه الأميرِ القَتِيل ، وقد كانَ صديقاً لكَ ، وكنتَ حاجِباً له . ولذلِكَ يُريدُك معَه ، حاجِباً له ، فى تِلِمْسان .

وكانَ « أبُو حمّو » ، قد بعَثَ بجيشٍ للاستيلاءِ على « بجَّايَةَ » ، لكنّ « أبَا العبّاسِ » هزَمَه هزيمةً مُنْكَرَة ، وكانَ « عبدُ الرحمنِ » يعرِفُ أنّ « أبَا حَمّو » يريدُ الاستعانَةَ به ، لتحرِيضِ قبائِلِ « بجَّاية » ضِدّ « أبِى العبّاس » وقالَ « عبدُ الرحمن » للسّفِير ، وكان أخُوه « يحْيى » جالِساً معهما :

ــــ عزمْتُ على التفرّغ لِلعِلْم ، واعتزلْتُ المناصِبَ . وهاهُوَ أخِى « يَحيَى » قد نَجحَ فى الفِرار من « بُونَةَ » فخُذْه معَك ، فهو خَيْرٌ من يُرِيدُه الأميرُ للحِجَابَةِ . وسوْفَ أُعِينُ أمِيرَ تِلِمْسانَ بجَيْشٍ من قَبَائِلِ « بجَّايةَ » .

وانصرفَ السفيرُ مع « يحْيى » . ونَهَض « عبدُ الرحمن » بمهمّتِهِ الجديدَةِ للثأرِ لصدِيقهِ . لكنّ جيشَه وجَيْشَ « أبِى حمّو » هُزِمَا هزِيمةً ساحِقَة ، فعادَ « عبدُ الرحمن » إلى « بَسْكَرَةَ » يُعِدّ لجولَةٍ أُخْرَى .

جيش المطاردة

وَوَلِيَ عرْش « فَاس » السّلطان « أَبُوفَارِس » المْرِينِيّ ، وخرَج بجيشِه لغْزوِ « تِلِمْسَان » فوجَدَ « عبدَ الرحمن » نفسَه وقدْ وقَعَ بيْنَ نارَيْن ، ومُعسكريْنِ ، فى حَرْبٍ لاغرَض لهُ مِنْها . ودبّرَ للعَوْدَةِ إلى « غَرْنَاطَةَ » وحِيدًا ، لكن سرِيةً من جُنْدِ « أَبِي فارِسَ » لحِقَتْ بهِ ، وعادَتْ مَعَهُ إلى « أبِى فارِسَ » فى مُعسْكَرِهِ على مَشَارِف « تِلمسان » ، فقال لَه :

ـــ ظنَنّا أن معَكَ ودَائِعَ لأَبِى حَمّو ، ورِسَالَةً حملْتَها مَعَك إلَى أَمِيرِ « غَرْناطَة » . لكنْ ما الذى دَعَاك يوماً للرحيل عن فَاسَ ، وعن خدْمَةِ المْرِينيّينَ ؟

فقالَ له « عبدُ الرحمنِ » :

ـــ الخوفُ من الوزِيرِ « عمر » الذى قَتَلْتُموه ، هو الذى دَعَانى للرحِيلِ آنئِذٍ .

وتشَفَّعَ رِجَالُ « أَبِى فارِسَ » لعبدِ الرحمن ، بِحُسْنِ خَدَمَاتِهِ

السّابِقَةِ لِلمرْيَنِيّينَ ، فأطلَقَ سَراحَه . فذهَبَ إلى رِبَاطِ أبِى مدَين (ملجّأً لفقراءِ الصّوفِية) ، مُعلِنًا تفرغهِ للعبادَةِ والعِلمِ . وجاءتْه الأخبارُ باجْتياح « أبِى فارِسَ » لمدينَةِ « تِلِمْسَان » ، وفِرَارِ « أَبِى حَمّو » بجَيْشِهِ إلى الصّحَراءَ . وفوجِىءَ برجَالِ « أبِى فارِسَ » يأخذُونَه من الرباطِ للقاءِ السُّلْطَان :

قالَ لهُ السّلطانُ « أبو فارِسٍ » :

ـــ اخترتُك دونَ سِوَاك ، لكى تُجنِّدَ جيشاً من القبائِلِ ، وتُطارِدِ بِه « أَبَا حَمّو » . وعَلَيْكَ أن تُبَرْهِن على وَلائِك لَنَا ، ومعَك قادَةُ جيْشِنَا .

ولم يجِدْ « عبدُ الرحمن » مفراً من التنفيذِ ، فجنّد جيْشاً ، هَزَم بهِ جَيْشَ « أَبَا حَمُّو » ، ونَجَا « أَبُو حَمُّو » بنفسِه ، وحيدا فى ظَلاَمِ الليل ، وقد تَشَردّ أَهْلُه ، وتفرّقُ أَعْوَانُه . وعادَ « عَبدُ الرحمنِ » إلَى « تِلمسَان » ، فشكرهُ السّلطانُ ، وأذِن له فى العوْدَةِ إلى أهلِه فى « بَسْكَرَة » . لكنّ أميرَها لَمْ يُخْفِ عنْه خَشْيَتَهُ مِنْه ، وكانَ له صدِيقاً ، فصحِبَ أهْلَه ، وذهبَ بهم إلى حماية « أبِى فارِس » فى « تِلِمْسان » .

عـودة الفِتَن

فى الطريق ، جاءَ إليه الخبرُ بوفاةِ « أبى فارِسَ » . فعدَل بأهلِه إلى « فاس » ، فقَد أَدْرَك أنّ « أَبَا حمُّو » سيعُودِ إلى « تِلمسَان » ، وأن عليْه أن يَنْجُوَ بنفسِه وأهلِه ، من انْتِقَامِ « أبى حَمّوُ » ، لكنّ أشقَياءَ من « بَنِى يغموُر » انقضّوا علَى « عبدِ الرحمن » وأهلِه ، ونَهَبُوا متاعَه ومَالَه ، وهَرَب حُرّاسُه على خُيُولِهم إلى جَبَل « دِبْدُو » . فسَارَ بمنْ معَهُ إلى الجبلَ فى حالةٍ يُرْثَى لها ، تحتَ حرارة الشمسِ الصحراوِيّة . وصحِبَه الحراسُ إلَى « فاس » . وعوّضَه الوزِيرُ « ابنُ غَازِى » عما أصابَه ، فعاش عالِماً ، مَوْفُورَ الثّراء ، إلى أن بلَغَ أربعاً وأَرْبَعِين سنَة .

لكنّ الفَتنَ عادتْ مرةً أخرُى تحت سَماءِ « فاسَ » . يُخْلَعُ سُلْطَانٌ ، ويُوَلّى سُلْطَانٌ ، ويُقْبَضُ على « عبدِ الرحمنِ » ويُطلقُ سَرَاحه ، لغيرِ سَبَبٍ فى الحالَيْن . وجلَس « عبدُ الرحمنِ » يفكّرُ فى غَدِه . وقالَ لزوجتِه وابنِه « زيْد » :

ــ الآنَ أُدرِك أنّ قصورَ المغرِب كُلَّها قد سُدّتْ فى وجْهِى . وأنّ كُلّ الأمرَاءِ صارُوا فى شَكٍّ من أَمْرِى . ولا مَفَرّ لِى من الرّحِيلِ إلى « غَرْنَاطَة » ، فابْقوْا فى « فَاس » إلى أَنْ أَدْعُوَكُم إلَىّ .

عُد إلى عدوك

ونزَلَ « عبدُ الرحمنِ » ، للمرةّ الثانيةِ ، ضيْفاً على أميرِ « غرناطة » ، لكن سُلْطَانَ « فاسَ » الجدِيدَ ، أرسَل فى أثرِه ، يطلُبَ من أمِيرِها إعادَتَه إلى « فَاسَ » ، فأَبَى أميرُ « غرنَاطَة » الاسْتِجابةَ لطلَبِ السّلطان ، فبعَثَ إليهِ يتوعّدُه بالحرْبِ ، إن لم يخرِجْهُ من الأندَلُس ، إلى أىِّ مكان آخرَ ، وليكُنْ هذا المكانُ هو « تِلِمْسَانَ » ، دوُنَ سِوَاها .

وأدرَك « عَبْدُ الرحمن » أن سُلْطَانَ « فاسَ » يخْشَى على عَرْشِهِ مِنْه ، وهو بالأَنْدَلُس ، ويرِيدُ الخلاصَ مِنْهُ بإرسَالِهِ إلى عدُوِّه « أبِى حَمّو » . وخشِيَ على أَهْلِه فى « فَاسَ » من سُلْطانِ « فاسَ » ، فقبِلَ العودةَ وحِيداً إلى « تِلِمْسَان » ، ليُنْقِذَ أميرَ « غَرْنَاطة » من الحَرَجِ ، وأهلَهُ من الانْتِقَامِ .

برهن على إخلاصك

حِينَ وطِئَتْ قدمَاه مِينَاءَ « هُنَيْن » أرسَل إلى أخِيهِ « يحَيَى » ، ومن العجِيبِ أنهُ كانَ مايزَالُ يعملُ حاجِباً لأبِى حَمّو فى « تِلِمْسَان » ، وإلى أَعْيَان « تِلِمْسَان » ، طالباً شفاعَتَهم

لَدَيْه ، وإذْنَه له بالمثُول بَيْنَ يَديْه ، طالِباً الأَمَان ، لكى ينتزِعَ له ، بدَهَائِه ، عرْشَ « بجَّايَةَ » ، فى يَوْمٍ من الأَيّام .

واستَقَرّ « عبدُ الرحمنِ » فى « تِلِمْسَانَ » ، وقَدِمَ إليْهِ أهلُه من « فَاس » ، وتظاهَرَ « أَبُو حّمو » بقبُولِ إعلانِ « عبدِ الرحمنِ » ، اعتزَالَهُ للسّياسةَ ، وانْقِطاعَهُ للعِلمِ ، حتى دعَاه إليه ، وقالَ لهُ :

ــ عفَوْتَ عنْك ، وأُرِيدُكَ ، الآن ، أَنْ تُبَرْهِنَ على وَلاَئِك لِى ، بدعوةِ القبائِلِ إلى نُصْرَتِي .

مع بنى هلال

تَظَاهَرَ « عبدُ الرحمنِ » بالقَبُول ، وغادَرَ « تِلِمْسَان » ، واختارَ جِهَةً نائِيةً ، جنوبِيَّ المغربِ الأَوْسَط ، حَيثُ مَنازِل أصدقَائِه من « بنِى عريفٍ » .

وجلَس « عَبْدُ الرحمن » إلى أَعْيَانِ « بنِى عرِيفٍ » فى قَلْعَةِ « بَنِي سَلاَمَة » (تاوغزوت) ، فى بلاَدِ « تُوجِين » (بمقاطعَةِ وَهْران) . وقال لهم :

ــ صِرْت إلى أَسْوَأَ حال . وأجدُنى فى مَرْمَى السِّهامِ مِنْ

كُلِّ الأمراءِ ، ولا أُرِيدُ الآنَ سِوَى الفراغِ للعِلم ، واللجوءِ إلى حمايتِكم .

وأخذتِ النّخْوَةُ (المروءة) رجالَ « بني عَرِيف » ، فَبَعَثُوا لأبِي حمّو ، يطلبُونَ عفْوه عَنْ « عبدِ الرحمنِ » لمخالفَتِه لأمْرِه ، والإِذْن لأَسْرَتِهِ لِكَيْ تلحقْ به ، ووعدُوه بنُصْرتِه إن هوَ قبِلَ رجاءَهم . وقالَ « أبو حمُّو » ليحْيَى :

ــ فعلَها أَخُوك . فمنْ يقدِرُ على رفْضِ رجاءِ لبَني عرِيف . ووراءَهُمْ عَشَائِرُ (أُسَرٌ) « الدَّوَاوْدَةِ » ، وعشَائِر « ريَاح » ، وهُمْ أَعَزُّ قبائِلِ بَنِي هلال ، وأكثُرهُم نَفراً (جمْعا) .

فقالَ له « يحيَى » :

ــ أيها الأمير . امْنحْهُ عفْوكَ . وأكرِمْه بأهْلِه . فالله قد اختارَه للعِلْمِ لا للسِّياسَة .

خبرة العمر

فى القَلْعَةِ ، نَعِمَ (تمتّع) « عَبْدُ الرحمن » بالأمْنِ ، والاستقْرار ، والهُدُوء ، يرقُبُ فى اللّيْل القَمَرَ ونُجُومَ السّمَاء ،

ويُنْصِتُ إلى عزيفِ (صَوْتِ) الرّيحِ ؛ ويسْمَع فى النهّارِ صَهيل الخَيْلِ ، ويرَى بِحَارَ الصّحرَاءِ ، وقممَ الجِبَالِ ، وهو جالِسُ وحِيداً مع كُتُبه ، ودَفَاتِرِه ، وريشَتهِ ، ومِحْبَرَتِه ، يُفكِّرُ فى أحْوَالِ الأُمَمِ ، وتقلبَاتِ الدّوَل ، وتشابُهِ الأحْداثِ فى الصحارَى والوِدْيَان ، والبوادِى والحواضِر .

وَطَوالَ خمسةِ أشهرٍ فقَط ، كان قد كَتَبَ سُتمائة وسبعاً وثمانِينَ صفحة . وضع فيهَا خبرةَ رُبعِ قرنٍ قضَاهُ فى السّياسَةِ ، وخدمةِ القُصُور ، ومناوَرَات الأمراءِ والسّلاطين . واهتدَى إلَى القوانِين الاجتماعية المحتُومَة ، والمتكررةِ ، لشئُونِ الاجْتماعِ البشرِىّ . وعثَرَ على المنْهَجِ والرُّؤيَةِ لتَاريخٍ موسُوعِىّ كبيرٍ ، عن أُمَمِ الأَرْض فى عصْرِه ، وإلى زَمَانِه . وكَتَبَ « عبدُ الرحمن » على غِلاَفِ صَفَحاتِه عنواناً متواضِعاً : « المقدمَةُ فى فَضْلِ التّارِيخ » ، وقُدِّرَ لهذِه المقدمة أَنْ تكونَ واحِدَةً من أشْهَرِ كُتُبِ الدّنْيا ، وأن تحمِلَ بعدَ قُرُون عنوانَ : « مُقّدمةُ ابن خَلْدُون » .

وفى السّنواتِ الأربَعِ التالية ، أنْجَزَ « ابنُ خَلْدُون » أجزاءَ تاريخه فى كتابِه الموسُوعِىّ : « العِبَرُ ودِيوانُ المبتدأ والخَبَر » ، مستعيناً بدفاتِرِه الخاصّة ، مفتقِداً الكثِيرَ من المراجِعِ ، وكُتُبِ التاريخِ .



لكل شيء قانون

وجلسَ « عبدُ الرحمن » ليلاً ، مع ابنِه « زيْد » ، وقالَ له :

ــ هذِه هي مُقَدّمتى لدرَاسة التّارِيخ . اقرأْهَا بعنَاية . فلم يسبِقْني أحدٌ إلى مثلِها . لم أفْعَل فيهَا مافعَله غَيرِى من المؤرِّخين . لم أتَوَقّفْ عِنْدَ وصْفِ ظَوَاهِرِ التَارِيخِ ، أو الدعْوَةِ إلى مَبَادئَ ومُعْتَقَدَاتٍ ، أو إلَى مَدِينَةٍ فاضِلَةٍ ، فَعَلْتُ ماهُوَ أجَلُّ وأعْظَم . درسْتُ الظّوَاهِر الاجْتِماعِية فى تَارِيخِ البَشَر ، وحَلَّلْتُها ، واكتشْفتَ قوانِينَها المطَّرِدَة ، التى تحكُمُ تَطَوّرَ هذِه الظواهِرِ ، وتتحكّمُ فى مَدَى الاستقرارِ البشرى ، فى أيِّ مكان .

فقال له « زْيد » :

ــ فَعَلْتَ إذَنْ مَافعَلهُ العُلماءُ مَعَ ظواهِرِ الطَّبِيعَةِ ، والكائِنَاتِ الحيّة ، فى عُلومِ الكيمِيَاءِ ، والحَيَاةِ ، والحَيَوان ، ووظائِفِ الأعضاء .

فقال له أبُوه :

ــ أصبْتَ التشبِيهَ يازَيْد . ذلِكَ هو مافَعَلْتُهُ تَماماً ، لكى

أصِلَ إلى قَوانِينَ حَاكِمَةٍ ، للاجتماعِ البشرِى ، لا تشِذّ عن القوانِينِ المماثِلَةِ ، لِظَوَاهِرِ الكونِ بأسْرِه .

وصَمَت « عبدُ الرحمن » بُرْهَةً . ثم قالَ لزَيْد :

ــ لكنّنى يابُنى ، مازِلْتُ بحاجَةٍ إلى المراجِعِ والكُتُب ، لأستكمِلَ أجزاءَ كتابِى فى التاريخِ : « العِبرُ وديوان المبتدإِ والخبرِ » وأعرِفُ أنها موجُودَة ، فى مكانٍ واحدٍ ، أعرِفه مُنذُ صِبَاى : « مكتَبَة تُونس » .

و لم يتردّد « ابنُ خلدُون » . أمسَكَ بقلمه ، وجلسَ يكتبُ رسَالة إلى « أبِى العبّاس » ، وكان قد صَارَ سُلْطانًا على « تُونس » يطلُبُ فِيها العفوَ عنْه ، ويُعلِن اعتزَالَه للسياسَةِ ، وتَفَرُّغَه للعِلْمِ ، وإنجازَهُ لمقدمَتِه ومعظمِ تارِيخِه ، وحاجتَه إلى مكتَبةِ « تونس » ، وبعَثَ برسَالتِهِ مع رسُولٍ طارَ بِها على ظَهْر جوَاد ، وجلَس يترقّب (ينتظر) ردَّ السّلطانَ .

لا مهرب سوى الهرب

عادَ الرسولُ إلَى « ابنِ خَلْدُون » بعد أسابِيعَ ، ومعه رِسَالة تحملُ عفوَ السلطان ، وتأذَن له فى العوْدةِ إلى تُونس . فسارَع

بمغادرَةِ ديار « بنى عريف » ، تارِكاً أهلَه فى رِعَايَتِهِم إلى حِين ، وصحِبَه الفرسَان فى اجتيازِه للصحْرَاء ، حتى دخلَ على « أبى العباس » وسط جيشه ، فى سُرادِقِه ، قُرْبَ مدينَةِ « سُوسَة » .

ورحّب « أبُو العباس » بابنِ خَلدُون ، واستشارَه لفورِه فى إخمادِ ثَوْرَة ، فأشَار عليه بالرأى السّدِيد (الصواب) . ووفّر له نائِبُ السّلطَانِ فى « تُونس » الراحَة ، ومَنَحهُ معاشاً سخِيًّا (كبيرا) ، فبَعَثَ بمنْ يأتِى بأُسْرَتِه من ديارِ « بنى عَرِيف » .

كان « ابنُ خلدُون » قد بلغَ من العمرِ اثنتَيْنِ وخمسِين سنة ، حين أَتَمّ تاريخه فى مكتَبَة « تُونس » ، وفى حفْلٍ مشهُودٍ ، رفَعَ « ابنُ خلدونٍ » مقدّمتَه وتارِيخه إلى السُّلطانِ . وظنّ أنّه قَدْ أُعْفِىَ إلى الأَبدِ من أمُورِ السِّياسَةِ والحرْبِ ، فى المغربِ كُلِّه ، لكن « أَبَا العَبّاسِ » عادَ للاسْتعانةِ به ، فى حَمْلةٍ حربِيّة ، ومهامّ وزارِية ، لم يكدْ يَفْرَغ منهاَ حتى عزَم على قَرَارٍ لارجْعَة فيه : الهَرَبُ من تونس ، بل من المغرِب بأسرِه ، ليَبْدَأَ حياةً جَدِيدَةً ، لا حاجَةَ بأَحَدٍ فيهاَ لمِثْلِه ، فى سياسَةٍ أو حرْبٍ . ووجَدَ سَبَباً للهَرَبِ : الخروجُ إلى الحجّ ، وكانتْ عينُه الخَفِيّةُ على القَاهِرة ، وقد تذكّرَ كلماتِ « المقّرِىّ » له عَنْها : « مَنْ لَمْ يَرَ القَاهِرَة لم يَرَ عِزّ الاسْلاَم » .

حاضـرة الدنيـا

دخَل « ابْن خَلْدون » مدينةَ الاسكندرِية ، فى يومِ عِيدِ فِطْرٍ ، وتجوَّل بها شهْرًا ، ثم ارتَحَل جَنُوباً إلى القاهِرَة . وهالَتْه القاهِرَةُ .. ها هُوَ فى حاضَرةِ الدّنيا فى زَمَانِه ، وراعَتْه كثْرَةُ الخَلْقِ ، والبسَاتِين والمدارِسُ ، والمستشفَيَاتُ ، والقُصُورُ ، والأهْرَامَاتُ ، وأبو الهول ، والعمَائِرُ المختلِفَةُ الطُّرُزِ والعُصُور ، وتَكَايَا الصّوفيةِ ، ووفْرَةُ العُلماءِ والفَنّانِينَ والأطِبّاءِ ، وتَرَامِى المَزَارِعِ الشّاسِعَةِ ورَاءَ الأُفُق ، أينَما نَظَر . وهَمَس « ابنُ خلدون » : « نعم . هنا قَلْعَةُ الإسلامِ الحصِينةُ للمشرِقِ والمغرِب . وهُنَا البَقَاءُ إلى نِهَايَةِ العُمْرِ إنْ شَاءَ الله » .

على عَرْش مصر ، كانَ يجلِس آنَذَاك ، السّلطانُ « الظاهِرُ برقوق » ، أحدُ المماليكِ البُرجِيَّة العِظَام ، قبلَ دُخُولِ « ابنِ خَلْدونٍ » بعشرَةِ أيّام ، وقُدِّر لابنِ خَلْدُونٍ أن يعِيشَ زمانَه ، ويرَى رعَايَتَهُ للعُلُوم والفُنُون ، وإنشاءَه للمـدارِس والمستَشفَيَات ، وإغداقَه عَلَى العُلَماءِ والفَنّانِينَ . وكانَتْ مصرُ فى ذلِكِ العصْرِ أغْنَى بِلادِ الأَرْض ، فهِى المِعْبَرُ والطَّرِيقُ بيْنَ البحرَيْن : الأحمر ، والمتوسط ، وهِىَ المِعْبَرُ والطّرِيقُ ، بين : الشرْقِ والغَرْب ، والشّمَال والجنُوب .

مرحباً بـك

وتَسَابَق علماءُ مصرَ وطلابُها ، للترحِيبِ بابْنِ خَلْدُون ، فقد سبَقَه إلَيْهم تارِيخُه ومقدّمتُه ، وبَلَغَهُمْ مَدَى عِلْمه فى الفِقْه والحَدِيث ، واللّغَةِ والأَدَب ، وفُنُونِ الكِتَابَة . وتَحَلَّقَ حَوْلَه الطُّلاّبُ فى حَلْقَةِ العِلْمِ فى رُوَاق المغارِبَةِ بسَاحَةِ الأَزْهَر . وأُعْجِبَ بِه الأميرُ « الطنْبَغَا الجُوبَانِى » ، فقدّمَه إلى السّلطَانِ « الظاهِرِ بَرْقُوق » ، قائِلاً :

ـــ هذا يامْولاَى هو عالِمُ المغرِبِ بأَسْرِه ، جاءَ للإِقامَةِ فى ظلِّ عَدْلِكَ وبِرِّك .

كانَ العامُ هو العامُ الرابعُ والثمانينَ وسُبعمائةٍ للهِجْرَه ، الثانِي والثمانِينَ وثلاثُمائةٍ وألفٍ للميلاَد ، حين دخَلَ « ابن خلدون » مدِينةَ القاهِرَة . ولم يَمْضِ عليْه سِوَى عامَيْن ، حتى أخَذَ السلطانُ يُعَيِّنه فى وظائِفِ التدرِيس والقَضَاءِ ، آناً بمدارِسِ : القمحيّة ، والصالحية ، وآناً فى منصِبِ قاضِى قُضَاةِ مصر ، بصفَتِه قاضِىَ قُضَاةِ المالِكِيّةِ ؛ وآناً مديراً لخانِقَاه (تَكِيّة) بيبرَس الصّوفِيّة . وصارَ لهُ فى القاهِرَة منزلاَن كبِيران : أحدُهما فى « بين القصرين » ، والآخَرُ فى جزيرَةِ « الروْضة » على شاطِىء النّيلِ .



كان يَحيَا آمناً ، لا يُعَكّر صَفْوَه ، إلا صَغَائِرُ بَعْضِ الموظفِين والفُقَهاءِ ، بالسّعايات والوِشَايات ، لكنّ بيْتَه ظلّ آمِنا لا يُفتّش ، وحَيَاته وادِعَةً لا تُهَدّد ، ورواتِبَه جارِياً لا يَنْقَطِع ، إن بقِيَ فى عَمَلٍ أو عُزِلَ عَنْه ، كى يُوَلّى غَيْرَه ، أو تُرِكَ بلا عَمَلٍ إلى حِين .

وأربَعُ حوادِثَ كُبْرى ، مرّ بها « ابنُ خَلْدون » فى حياتِه بالقاهرَة ، وفى الفترَةِ القصيرةِ التى قَضاها بالشّام : حين استَعَدّ لا ستقبَالِ أهْلِه بالقاهِرة ، وحين شَارك مُكرَها فى عَزْل السلطان ، وحين زارَ فلسطين ، وحين لقِى « تيمُورلنك » بالشّام .

المحنة الكبرى

استَعَانَ « ابنُ خَلدُون » بالسّلطان « بَرْقُوق » ليُساعِدَه فى مجِىءِ أهلِه إليه من « تونس » ، فكَتَب سُلطانُ مِصْرَ إلى سُلطانِ تونس . طالباً منه ، السماحَ لأهْلِ « ابنِ خَلْدونٍ » باللّحاقِ بِهِ فى مصْر ، وقال لهُ فى رسَالتِه :

« إنّنِي بحاجَةٍ إلى خَدَمَاتِ ابنِ خَلْدُون العلميّة ، وقد آثَر الإقامَةَ فى مِصْرَ ، ولا يَليقُ بسلطانٍ من سلاطِينِ المسْلِمين ، أن يحُولَ دُونَ اجْتِماعِ شمْلٍ لأُسْرَة ، فى أىِّ وَطَنٍ من أَوْطَانِ الإسْلام » .

واستجَابَ سُلطان تُونُسٍ لسُلْطانِ مِصْر ، فركِبتْ أُسْرةُ « ابنُ خلدون » سفِينَةَ مَتوجِّهَةً إلى الاسْكندرِيّة .

كان الوقْتُ شتَاءً ، والبحرُ هائِجَ الأمْوَاجِ ، والرّيحُ عاصِفَةً ، فغرِقَتِ السّفِينَةُ بمنْ علَيْها ، وهى عَلَى وَشكِ دُخُول الميناءِ ، وابتَلَع الماءُ أفْرَادَ أُسْرَةِ « ابنِ خَلْدون » جميعاً ، ومالَه ، ومَتَاعَه ، وكُتُبَه ، وتَقَاذَفَتِ الأمْوَاجُ كلّ شيءٍ .

وانطَوَى « ابنُ خَلْدون » على نفسِه حَزِينا ، ومَشَى بيْنَ الناسِ مكتَئِبَ النّفْس ، وكانَتِ الوِشَايَاتُ بِهِ قد أُثْمَرَتْ لدَى السُّلطانِ ، فَعَزَلَه من مَنْصِبِ القَضَاء ، وأسْنَد إلَيْهِ مَنْصِب التدرِيس للفقِهِ المالِكِيّ فى المدرسَةِ الظاهرِيةِ البرقُوقِيّة .

وكان « ابنُ خلدون » فى حالَةٍ من الاكتئابِ ، لاتجعلُه يُوَثِّق عَلاَقَتَهُ بِمُدِيرِ هذِه المدرَسةِ ، فسَعَى لدَى السّلطان ، فأَعْفَاهُ أيضاً من هَذَا المنصِب ، لكنه ظلّ يُجرِى عليْه راتِبَه . ولم يُنجِهِ من محِنْتِهِ سِوَى خُرُوجِه للحّج .

الغضب والعفو

وحَدَثت فى الشّام فِتْنَةٌ قَادَها « يَلْبُغَا الناصِرِىّ » . وانتهتْ هذِه الثورة بخلْعِ العُلماءِ فى مِصْرَ ، للسّلطانِ الظّاهرِ « بَرْقُوق » عن عَرْش مِصر . وشاركَ « ابنُ خلدُون » مُكْرَها فى هذا الخلّع .

وتمكنّ السّلطانُ « بَرقُوقُ » من العودَةِ إلى عَرْشِ مصر ، فجمَع العُلماء ، وعاتَبَهم ، فاعتَذْر « ابنُ خلدون » عنْ نفسِه وعَنْهم ، بقَوْلِه :

ــ أَكْرَهَنا عَلَى التّوقِيعِ الأميرُ « مِنْطاش » ، وهَدَّدَنا فى أرْوَاحِنا وأرْزَاقِنا ، زاعِماً لنَا أنّك تستَعِين فى قِتَالِ المسْلِمِينَ ، بغيْرِ المسلِمِينَ .

وظلّ « برقوق » غاضِباً زمَناً عليه ، وعلَى العلماءِ ، ثم عفَا عَنْهم ، وأعادَ إليْهم رَوَاتِبهم ، بلْ وأعَادَ « ابنَ خلدُون » إلى منصِبِ القَضَاء . وكان قد بلَغَ من العمرِ سبعين سَنَة . ولم تمضِ سوَى شهورٍ حتى تُوُفِّى « الظّاهِرُ برقوقُ » ، وَوَلِى عَرْشَ مِصْرَ من بَعْده ، ابنُه « الناصِرُ فَرَج » .

هذا الزى المغربى

واقْتَرَبتَ أَعْيَادُ الميلادِ عامَ أَلْفٍ وأربعمائةٍ ميلادِيّة ، فتوجّه « ابنُ خلْدون » إلى زيارَةِ بيْتِ المقدِس ، وشاهَد كَنَائِسهاَ ، وصَلّى فى المسجِدِ الأقْصَى ، وعند صخرة القُبّة ، وزارَ بيتَ لَحْم ، والخلِيلَ ، وغَزّةَ ، وعادَ ليَكْتُبَ ماشَاهده فى وصْفِ

دقِيقٍ ، فى كتابِه « التّعرِيفُ بابْنِ خَلْدُون ورِحْلتُه شَرْقا وغرْباً » ، والذِى جَعَلَه ذيلاً (خاتمة) لِكتابِه « العِبرَ » .

ولم يكدْ يستَقِرّ بمصرَ ، حتى عُزِلَ من مِنصبه كقَاضٍ للقُضَاة ، بسبَبِ دسَائِسِ منافِسِه « ابنِ الخَلاّل » ، فعادَ لتدرِيس الفِقْه والحديث . آنذَاك دعاَه السلطانُ « الناصِرُ » إليه ، وقَالَ له :

ــ ياابَن خلدون . الناسُ يأخُذُون عليك ، حِرْصَك على زيِّك المغرِبّى هذاَ . ولِلْعُلماَءِ فى مصرَ زىٌّ خاصٌّ بهم ، شَارك أبِى فى تصمِيمِه بنَفْسِه . فكُفّ عَنِّى وعنْك استنكَارهَمُ لهذَا الزِّىِّ .

فقالَ له « ابنُ خَلْدون » .

ــ ياموْلاىَ . العبدُ عِنْد الله بقلْبه وعَمَلِه . والمسلِمُ بقولِهِ وسُلُوكِه . وقد أَلِفْتُ زِيِّى هذا وأَلِفَنِي . والإسْلامُ لا يُفَرِّق بينَ الناسِ بأزْيَائِهم ، ولا أَلْوَانِهم .

فقال لهُ السلطان غَير رَاضٍ عَنْه .

ــ كما تَشَاءُ ياابْنَ خلدون . كَما تَشَاء .

بغلة تيمورلنك

وجاءَتِ الأَنْبَاء إلى مِصْرَ ، بانقِضَاضِ « تيمورلنْك » بجيوشِه على الشّام ، واحتلالِهِ لحلَب ، وزحْفِه إلى دمِشق ، فسارَعَ السلطانُ « الناصر » إلى الخروجِ بجيُوشِه ، لصَدّ غَارات التّتَار ، ومَعَه علماءُ مصر ، وبينهم « ابن خَلْدون » .

واشتَبَك جُنْدُ مِصْر مع جَيْشِ التّتَرِ ، فى مَعَارِك صَغِيرةَ ، خارِجَ دمشق ، وبَدَأَتْ مُفَاوَضَاتُ الصّلْحِ بَيْنَ الفرِيقيْن . لكن « النّاصِرَ فَرجَ » سارَعَ بمغادَرَةِ مُعسكرِه ، عَائِداً إلى مِصْرَ ، لِيُوَاجِهَ مؤامَرَةً من بعضِ الأُمَرَاء ، لخلعِه عن عَرْشِ مِصْر .

ودُعِىَ العُلَمَاءُ لمقابَلَةِ « تيمُورلنْك » فى مُعَسْكرِه ، والتفاوُضِ مَعه على الأَمَان لأَهْلِ دِمَشْق . ولم يجِدْ بينَهمُ « ابنَ خلْدون » ، فَبَعَثَ إثْرَ انصرافِهِم فى طَلَبِه . وصحِبَه نائِبُه « شَاه ملكِ » إلَيْه ، فقدّم له « ابنُ خَلْدون » مصحَفاً ، وسجّادةً للصّلاة . فقَبّلَهُما .

سأَلَه « تيمورلنك » طوِيلاً عن أَحْوَالِ المغرب ، واستَكْتَبه صَفَحاتٍ عَنْ جغرافِيّة المغرب وتاريخه ، فأَدْرَك عزْمَه على غَزْو المغْرِب يوماً ، واعتذَرَ له بحاجَتِهِ إلى كُتُبِه ، وهى فى مِصْر ،



فأذِنَ له بالسفر ، والعوْدةِ إليه ، ومَعَه هذه الكتب . وأهْدَاه بغْلَةً ، مالَبِثَ أن اشْتَراهَا منهُ لِيُعطِيه مَالاً ، فى مقابِلِها .

وفى طَرِيقِ عودتِه إلى مِصْر ، أغارَتْ عليه هُوَ ومَنْ مَعَهُ جماعَة من قُطّاعِ الطُّرُق ، نَهَبَتْ كُلَّ مامعَهم ، وتركَتْهم يمشُون بلا نِعال ، ولا مال ، ولا ثِيَابِ تُذكَر ، إلى أَنْ أَسْعَفَهُمُ بَعْضُ أعْرَابِ سِيناء بالثيابِ ، والنّعال ، وبعْضِ المالِ .

وإثْرَ وصُولِهِ إلى مِصْر ، سارَع بالكِتَابة إلى سلطان المغرب ، يحذره من نوايا تَيْمورلنْك ، وسَلَّمَ ثمَن البَغلَةِ لبيْتِ المَالِ فى مِصْرَ ، حتى لا يظُن أحد أن « تيموراً » قد رشاه .

●

لم يضَعْ أحدٌ من عُلماءِ الغربِ لَبِنَات جدِيدَة ، فى عِلْمِ الاجْتماعِ ، وفلْسفةِ التّاريخِ ، سوى العالِم « أوجِيْست كُونْت » ، فى منتصَفِ القرنِ التاسِعِ عشر ، أىْ بعْدَ « ابنِ خَلْدون » بأربعةِ قُرُون ونصفِ قَرْن ، وظنّ حين مَزَج بين حَصَادِ كلِّ سابِقيه ، أنهُ هو منشِيءُ عِلْمَ الاجْتماع . وأعادَ إلَيْه الفضْلَ علماءٌ غربِيّون ، وبينُهم : « كُولُوزْيو » ، و « لودْفيج جمِيلُوفِتْش » ، و « فَارْد » و « شِميث » الذى يقُول : « إن العْلماءَ الذين وضعُوا أساسَ عِلْم الاجتماع مِن جديد ، لو كانُوا

قد اطّلعُوا على « مُقَدِّمَةِ ابن خلدونَ » فى حِينَها ، واستعانُوا بكلِّ الحقائِقِ التى كانَ قدِ اكتشفَها ، لتقدّمُوا بهذاَ العِلْم الجدِيدِ ، بسرعَةٍ أعظمَ مما تقدّمُوا بِهِ فِعْلاً » .

●

وفى منتصفِ القرن التاسِعِ عشر ، طُبِعت « مقدمَةُ ابن خَلدون » مرتَينْ ، مرةً فى القاهِرَة ، ومرةً فى بارِيس ، وكانْت طبعةُ بإريس تَنْقصُ فصْلاً ورَد فى طبعَةِ مصر ، وتَزِيدُ أربعَةَ عشرَ فصْلاً لم ترِدْ فى طبعةِ مصر ، وجَمَع الدكتور « علِى عبدُ الواحِدِ وافِى » الطبْعتين ، وحققهما ، فى طبْعةٍ صدرَت بالقاهرة .

●

فى فجرِ اليومِ الأولِ من شهْرِ رَمضان ، عامَ سبعمائةٍ واثنينِ وثلاثِينَ للهِجْرَةِ ، ألفٍ وثلاثمائةٍ وإحدىَ وثلاثِينَ للميلاد ، وُلِدَ « عبدُ الرحْمنِ بنُ خَلْدون » .

وفى فَجْرِ اليوِم السادِسِ والعشرِينَ من شهرِ رمضان ، عامَ ثمانمائةٍ وثمانٍ للهجرة ، ألفٍ وأربعمائةٍ وستةٍ للميلاد ، لِقى « عبدُ الرحمنِ بنُ خَلدُون » وجهَ ربّه ، عن ستٍّ وسبِعينَ سَنة . وانطفأتْ بوفاتِه سُرجُ مَصابِيحُ حَيَاةٍ وثّابَةٍ ، مليئةٍ بالنشَاط ، والمؤلفاتِ . وسَارَت القاهرَةِ فى وَدَاعه : العامّةُ ، والعلماءُ ، والقُضَاةُ ، والأُمَرَاء .

ودُفِنَ جُثمانُ المفكّرُ العظِيم بمقابِرِ الصوفِيّة ، خارجَ بابِ النّصْر ، فى اتجَاهِ حيِّ الرّيدَانِيّة (العباسية) .

وفى عام ألفٍ وتسعمائةٍ وواحدٍ وستينَ ميلادِية ، أقامَ « مركزُ البُحوثُ الاجتماعية » بالقاهرة . مِهْرَجَاناً علميًّا لذكْرَى « ابنِ خلدون » شارَكَ فيه عِلماءٌ من تسعِ دُوَلٍ عربيةٍ وأجنبِيّةٍ .

وفى ميْدَانِ النّبات ، بمدينَةِ الأوْقَاف بالقاهِرَة ، أُقيمَ تُمثَال لابنِ خَلْدون ، أمامَ هذا المركزِ نَفْسِه ، وتخليداً لِذكراه ، غَيَّرت مِصْرُ اسمَ « مَيْدانِ النبات » إلَى « ميدانِ ابنِ خلدُون » ، فما أكثَرَ نباتَاتِ المعرفة التى زَرَعها لنَا فى حَيَاتِه « ابنُ خلدون » ، عن حَضَارة الإنْسان ، ومُجتمعاتِ البشر .

وفى « تُونس » لايَزَالُ بيْتُ « آل خلدون » قائِماً ، تشغلُه إلى اليوْمِ مدرسةٌ للدّراسَاتِ العربِيَة العُلْيا ، وعلى البيت لافِتةٌ تحمِلُ اسَم « ابن خلدون » .

وفى شَارعٍ كبيرٍ بتونس ، يرى الزائِرون تمثالاً ضخماً لابنِ خلدون ، تخليداً لذكراه بيْن الأجْيَال .

رقم الايداع بدار الكتب

٩٢ / ٢٦٤٢

علماء العرب

١٨

ابن خلدون

أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ - عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى . وتنقل بين دول الشمال الافريقى والشام والأندلس . عمل وزيراً وسفيراً وقاضى قضاة وشيخاً للصوفية وعالم حديث . كتب رسالة فى المنطق وشرح آراء ابن رشد وألف موسوعة تاريخية ، كتب لها مقدمة خالدة عرفت باسمه ، فسر فيها نشوء العمران وتطور الاقتصاد والحضارة ورقى الأمم بالوقائع والمنطق والبراهين . وسبق ابن خلدون بهذه المقدمة علماء الاجتماع بأربعة قرون . إنها قصة تثير الفخار ، يقرؤها الصغار والكبار

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر